القصيدة الحائية

في الزهد والترغيب والترهيب

للشيخ العلامة

حافظ بن أحمد الحكمي

تأليف

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

الطبعة الأولى

١٤٣٧ هـ - ٢٠١٥



مُقَدِّمَة

إن الحمدَ لله، نحمَدُهُ ونستَعِينُهُ ونستغفرُهُ، ونعوذُ بالله من شرورِ أَنْفسنَا، ومن سيِّـئَات أعمالِنَا، من يهدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومن يُضْلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحدَهُ لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبدُهُ ورسولُهُ.

أما بعد؛

فبين أيدينا منظومة نافعة وقصيدة مفيدة للعلامة العَلَم الشيخ الإمام حافظ ابن أحمد بن علي الحكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، الشهيـرِ بحسن التصانيف، وجمال المؤلفات، وجودة المنظومات العلمية المتنوعة في أبواب الشريعة، لـما حوته من علمٍ غزير، وتقريرٍ نافع، وحسن استدلال، وجمال ترتيب، ووضوح عبارة، وطيب نصحٍ من هذا الإمام الـهُمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

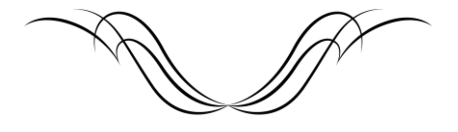
ومـمَّا نظمَهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه القصيدة الهائية، وهي في باب شريفٍ ومهمٍ من العلم؛ وهو الزهد في الدنيا والتحذير من الافتتان بها، والتكالُبِ عليها، وأن تكون أكبر هم المرء، ومبلغ علمه، وغاية مقصودِهِ، فإن من كان كذلك أضرته الدنيا مضرة عظيمة، وكانت سببَ هلكته وحرمانه من الخير، والناظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد

أحسن وأجاد في هذه المنظومة؛ فإنها مع اختصارها حوت خيراً كثيراً، ونفعاً عظيماً.

وقد كتب العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ في هذا الباب كتاباتٍ نافعة، ومؤلفاتٍ مفيدة؛ كالإمام أحمد وابن المبارك ووكيع وهنّاد بن السَّرِي وغيرهم.

وطالب العلم يحتاج أن يقرأ ما كتبه أهل العلم في هذا الباب من أجل أن تتهذب نفسه ويستقيم قلبه، وتصلح حاله، وألا يفتتن بالدنيا.

وأُحِبُّ أن أشير إلى أن الشيخ زيداً بن محمد بن هادي المدخلي رَحِمَهُ اللَّهُ له تعليقٌ على هذه المنظومة بعنوان: « **التعليقات البَهِيَّة على القصيدة الهائية** »، وفيه كفاية في توضيح مضامينها، وبيان ما حوته من معانٍ عظيمة، وإفاداتٍ مباركة، وهي مطبوعة متداولة، أسأل الله أن يعظم بها النفع وبشرحي هذا إنَّه ولي التوفيق لا شريك له[1].



(١) وأصل هذا الشّرح دروسٌ ألقَيْتها في مسجد عائشة عبد الله المحري بمنطقة المسايل من دولة الكويت عُقِدَت في ثلاثة مجالس بدءًا من يوم الخميس ٢٨/ ٢/ ١٤٣٧هـ، وكانت الاستضافة بتنسيق من مكتب الشؤون الفنية بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، أجْرَيْت عليه تعديلاتٍ وإضافاتٍ وتنقيحات، وشكر الله لإمام هذا المسجد خالد الكندري جُهْدَه وحِرْصَهُ على خروج هذه الدروس مطبوعة، واللهُ وحدَه المُوَفّق.



* قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَمَـا لِـي وَلِلدُّنْيَـا وَلَيْسَـتْ بِبُغْيَتِـي وَلَا مُنْتَهَـى قَصْـدِي وَلَسْـتُ أَنَـا لَهَـا

وَلَسْـتُ بِمَيَّـالٍ إِلَيْهَـا وَلَا إِلَـى رِئَاسَـتِهَا، نَتْنـاً وَقُبْحـاً لِحَالِهَـا!!

الشرح

قوله (وما لي و للدُّنيا وليْسَتْ ببُغْيَتي): صدّر الناظمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه القصيدة بهذا البيت مبيناً أن الدنيا لم تَأْسِر قلبه، ولم تستحوذ على نفسه؛ كما هو حال كثيرٍ من الناس ، ولا يقول هذه الكلمة إلا من فطن لحال الدنيا وما فيها من فتنة جارفة وزخرفٍ زائل، ومتاع فان .

وهي كلمة ثبتت عن النبي ﷺ كما جاء في حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أن عمرَ دخل على رسول الله ﷺ وهو على حَصيرٍ، قد أثَّر في جنبهِ، فقال: يا نبي الله! لو اتخذت فراشاً أوثرَ من هذا؟ فقال: « **ما لي وللدنيا ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار ثم راح وتركها** »(١)

(١) أخرجه الإمام أحمد في « المسند» رقم: (٢٧٤٤)، وصحَّحه الألباني في « **السلسلة الصحيحة** » رقم: (٤٣٩).

وهذه حال العبد في الدنيا، وحال إقامته وتـمتُّعِهِ بملذَّاتِها، فهو كمثل رجل استظل بظل شجرة ثم مضى وانصرف وتركها، فلماذا تستولي على قلب المرء؟! ولماذا تستحوذ على اهتمامه! ولماذا تكون مبلغ علمه وغاية مقصوده وهذا مَثَـلُها؟!

قوله **(ولَيْسَتْ بِبُغْيَـتِـي)**: أي ليست بمَطلِبي ومقصودي وهمَّتي، وإنما الهمة والرغبة منصرفة للآخرة؛ فهي البُغية والرغبة، بل هي غاية الـمُنَى.

قوله **(ولا مُنْـتَهى قَصْدِي)**: أي أنها لم تستولِ على مقصده وغايتِهِ، وإنما الغاية نيل رضوان الله عَزَّوَجَلَّ والفوز بالدرجات العلى في الآخرة.

قوله **(ولَسْتُ بميّالٍ إليها)**: ليس عندي ميلٌ وانشراحُ صدرٍ ورغبةٌ في الدنيا، وزينتها وزخرفها ورئاستها، كل ذلك ليس لي فيه همة ولا رغبة.

فأرشدَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذين البيتين إلى ما ينبغي أن يكون عليه حال المسلم -الناصح لنفسه- مع هذه الدنيا، وألا يغتر بمتاعها الزائل، وزُخْرُفِها الفاني، وبهجتها المنقضية، فإن كلَّ فرحةٍ وعافيةٍ، وكلَّ غنىً ومتاع في الدنيا سينتهي ولا بدّ.

ولا يُفهمُ مما تقدَّم أن الإنسان يَتركُ تحصيلَ ما يقيم دنياه ورزقه ومسكنه وملبسه، ويبقى عالةً على الآخرين، بل لا يضرُّ المسلم أن يعملَ ويكدح ويحصِّلَ المال، ولو أصبح المال عنده كثيراً، لكن الذي يضره أن تكون الدنيا همَّهُ وبُغيته ومقصده ومَبلغ علمه.

ولذا جاء عن النبي ﷺ أنه كان يقول في دعائه: « **ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا** »(١).

ولا يَضُرُّهُ أيضاً أن يكون من اهتمامه بالدنيا إبقاءُ أولاده أغنياء، وتحصيلُ مصالحهم وأرزاقهم، كما جاء في الحديث: « **إنك إن تذرَ ورثتك أغنياء، خيرٌ من أن تذَرَهم عالة يتكففون الناس** »(٢).

فأبواب الزهد في الدنيا إن لم تُفهم على وجهها فقد تصل بالإنسان إلى الدخول في نوع من الانحراف والمخالفة لشرع الله سبحانه وتعالى.

فالحاصل أنَّ الإنسان ينبغي أن يعرف حقيقة الدنيا، وخِسَّتها، وسرعة زوالها، وأنَّها ملعونة ملعونٌ ما فيها، إلا الخير وذكر الله والعمل الصالح والتقرب إلى الله سبحانه وتعالى، كما جاء في الحديث: « **إن الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالماً أو متعلماً** »(٣).

---

(١) أخرجه الترمذي في « الجامع » أبواب: الدعوات، رقم: (٣٥٠٢)، **وحسَّنه الألباني** في « الكلم الطيب » رقم (٢٢٦).

(٢) **أخرجه البخاري في** « **صحيحه** » كتاب: الجنائز، باب رثاء النبي ﷺ سعد بن خولة، رقم: (١٢٩٥)، **ومسلم في** « **صحيحه** » كتاب: الوصية، رقم: (١٦٢٨).

(٣) أخرجه الترمذي في « الجامع » أبواب: الزهد، رقم: (٢٣٢٢)، وابن ماجه في « السنن »، أبواب: الزهد، باب: مثل الدنيا، رقم: (٤١١٢)، **وحسَّنهُ الألباني** في « صحيح الترغيب » (٧١).

(فالدنيا في الحقيقة لا تُذَمُّ، وإنما يتوجَّهُ الذمُّ إلى فعل العبدِ فيها، وهي قنطرة ومعبر إلى الجنة أو النار، ولكن لما غلبت عليها الشهوات والحظوظُ والغفلةُ والإعراض عن الله والدار الآخرة -فصار هذا هو الغالب على أهلها وما فيها، وهو الغالب على اسمها- صار لها اسم الذمِّ عند الاطلاق، وإلا فهي مبنى الآخرة ومزرعتها، ومنها زاد الجنة، وفيها اكتسبت النفوس الإيمان ومعرفة الله ومحبته وذكره ابتغاء مرضاته، وخير عيش ناله أهل الجنة في الجنة إنما كان بما زرعوه فيها.

وكفى بها مدحاً وفضلاً ما لأولياء الله فيها من قُـرَّة العيون، وسرور القلوب، وبهجة النفوس، ولذة الأرواح، والنعيم الذي لا يشبهه نعيم؛ بذكره ومعرفته ومحبتِهِ وعبادته والتوكل عليه والإنابة اليه والأنس به والفرح بقربه والتذلل له ولذة مناجاته والإقبال عليه، والاشتغال به عن سواه، وفيها كلامُهُ ووحيُهُ وهداه وروحُه الذي ألقاه من أمرِه فاجتبى به من شاء من عباده) [(١)].

* **قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

هِـيَ الـدَّارُ دَارُ الهَـمِّ وَالغَـمِّ وَالعَنَـا ... سَـرِيعٌ تَقَضِّيهَـا، قَرِيـبٌ زَوَالُهَـا

مَيَاسِـيرُهَا عُسْـرٌ، وَحُـزْنٌ سُـرُورُهَا ... وَأَرْبَاحُهَـا خُسْـرٌ، وَنَقْـصٌ كَمَالُهَـا

إِذَا أَضْحَكَـتْ أَبْكَـتْ، وَإِنْ رَامَ وَصْلَهَـا ... غَبِـيٌّ فَيَـا سُـرْعَ انْقِطَـاعِ وِصَالِهَـا!

(١) «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين» لابن القيم (ص٣٣١).

الشرح

يبيِّنُ رَحِمَهُ اللَّهُ في هذه الأبيات حال الدنيا، وحال الناس فيها.

قوله (دارُ الـهَم، والغم، والعَنا): هذه أمورُ حاصلةٌ للناس ولابُد، فإنهم وإِنْ أُوتوا فيها المالَ والرئاسات والمناصب فلن يسلَموا منها.

فإنها إن أضحكت قليلاً أبكت كثيراً، وإن سرَّت قليلاً أحزنت كثيراً، وما مُلئ بيتٌ فرحاً إلا مُلئ تَرَحاً.

ودواء الهموم والغموم ذكرُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وعبادتُهُ، واللجوءُ إليه، والإقبالُ على طاعته، وتلاوة القرآن، والإيمان بقضاء الله وقدره، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ **أي**: يَسْعد، ويَـهْنأ في الحياة الدنيا.

وقال تعالى ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾.

ولهذا ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: « **ما قال عبد قط إذا أصابه هم وحزن: اللهم إني عبدك، وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب هَـمِّي؛ إلا أذهب الله عَزَّوَجَلَّ همَّهُ،**

وأبدله مكان حزنهِ فرحاً. قالوا: يا رسول الله ينبغي لنا أن نتعلم هؤلاء الكلمات؟ قال: **أَجَل ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن** »[١].

فهذه الأمور المذكورة في الحديث من صحة المعتقد، والإيمان بالقدر، والمعرفة بالله وأسمائه وصفاته، والتوسل إلى الله ﷻ بها، وكذا العناية بالقرآن والاستشفاء به، وغير ذلك مما ورد في الحديث هي التي فيها مداواة الهموم والغُموم.

قوله (سَريعٌ تَقَضِّيها قَريبٌ زَوالُـهَا): أي: مع هذه الأشياء المتقدمة مِن الهمِّ والغَمِّ والآلام؛ **(سَريعٌ تَقَضِّيها)** فسريعاً ما تنقضي.

ولهذا مهما أُوتِيَ المرءُ في هذه الدنيا من الجاهِ والمالِ والرِّئاسة وما إلى ذلك؛ يَفجَأُ الناسَ خبرُ موتهِ أو افتقارهِ، **فهو بين حالين**: إما أن تذهبَ عنه دُنْيَاهُ، أو يذهبَ عنها، كما قال الله ﷻ: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًاۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾، وكذلك انقضاء الدنيا كلِّها قريب، كما قال الله ﷻ: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ فعلى العبدِ أن يتنبَّهَ لحال الدنيا وسُرعة انقضائها.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» رقم: (٤٣١٨)، **وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة»** رقم: (١٩٩).

قوله **(مياسِرُها عُسْرٌ وحُزنٌ سُرورها)**: فالذي في الدنيا من خيرٍ ويُسْرٍ وعافية، يقابلُهُ أيضاً ما فيها من عُسْرٍ ونَـكَدٍ وآلامٍ.

والمصاعبُ والمتاعب تُلازِمُ مَطالبَ الدنيا قَـبْـلِ تحصيلها، وبعد تحصيلها، ووقت تحصيلها، فالمرء يعاني معاناةً شديدةً ويكونُ في همٍّ وغمٍّ حتى يُحصِّلَ مَطلوبَهُ في الدنيا، وبعدَ تحصيله يَظَلُّ في خوفٍ وهَمٍّ خشيةَ أن يضيعَ من يده أيضاً، فتجد الإنسان مثلاً لو طَمِعَ في شراء سيارة أو مَنْزِلٍ، فإنَّه يتعبُ وينصَبُ في التفكير وجمع المال، فإذا حصَّلَها وصارت في يده انتقلَ لِـهَمٍّ آخر وهو خشيةُ ضررِها وفقدِها، فلا يَسْلَمُ أيُّ شيءٍ في الدنيا من هذه الأمور.

قوله **(وأَرْبَاحُهَا خُسْرٌ)**: وذلك لأنَّ الأشياء التي يربحها الإنسان ويحصِّلُها في الدنيا غالباً ما تكون على حساب دينهِ والذي خُلق من أجله، إلَّا من وفَّقهُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وهدَاهُ للجمعِ بين خير الدنيا والآخرة.

قوله **(ونَقْصٌ كَمَالُها)**: فكمال الدنيا للمرء هو نقصٌ في الحقيقةِ؛ لأنها تأخذ شيئاً من نصيبِهِ من الطاعة والعبادة وذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ولابُد.

قوله **(وإن رَامَ وصْلَها غَبيٌّ)**: أي: إذا طَمِع المرءُ في وصل الدنيا ونيلِ نعيمِها **(فَياسُرْعَ انقطاعِ وِصَالِها)** أي فسريعاً ما ينقضي هذا الوصال وينقطع.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (سرور الدنيا أحلامُ نومٍ، أو كظلٍّ زائل، إن أضحَكتْ قليـلاً أبكت كثيراً، وإن سرَّت يوماً ساءت دهراً، وإن متَّـعتْ قليلاً مَنَعتْ طويلاً،

وما مَلَأَتْ داراً خيرةً إلا مَلَأَتها عَبرَةً.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: لكل فرحةٍ تَـرْحة، وما ملئ بيتٌ فرحاً إلا ملئ تَـرَحاً.

وقال ابن سيرين رحمه الله: ما كان ضحكٌ قطُّ إلا كان من بعده بكاء) [١].

* قال رحمه الله:

فَأَسْـأَلُ رَبِّـي أَنْ يَحُـولَ بِحَوْلِـهِ وَقُوَّتِـهِ بَيْنِـي وَبَيْـنَ اغْتِيَالِهَـا

الشرح

لما ذَكَرَ حال الدنيا وبيَّن أمرها دعا بهذه الدعوة العظيمة **(فأسألُ ربي أنْ يَحولَ بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ بيني وبينَ اغْتِيَالِهَا)** أي: بيني وبين أن تغتالني الدنيا، فكم قد تزينت للخلق حتى فُتِنوا بها، واغترُّوا بها، فاغتالتهم وأهلكتهم.

ولا خلاص من اغتيال الدنيا وفَتْنِها للمرء إلا باللجوء إلى الله سبحانه وتعالى والتعوذ به من فتنتها، كما جاء في «صحيح الإمام البخاري» رحمه الله: (بابٌ في التعوذ من فتنة الدنيا) وأورد حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا هؤلاء الكلمات كما تُعلَّم الكتابة: **اللهم إني أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا وعذاب القبر**» [١].

---

(١) «زاد المعاد في خير هدي العِباد» (٤/ ١٧٤-١٧٥).

ومن الدعوات النافعة ما ثبت من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: قَلَّما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلسٍ حتى يدعوَ بهؤلاء الدعوات لأصحابه: « **اللهم اقْسِم لنا من خشيتكَ ما يَحُولُ بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصيبات الدنيا، ومتِّعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصُرْنا على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا**». (٢)

وأيضاً من الدعوات النافعة في هذا الباب ما ثبت من دُعائه عليه الصلاة والسلام: « **اللهم أصلح لي ديني الذي هو عِصْمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر**» (٣).

فالحاصل أن الدعاءَ مفتاح الخير، ومفتاح الفرج، ومفتاح النجاة، فلهذا ينبغي على العبد أن يُقبل على الله سبحانه وتعالى بالدعاء.

---

(١) « صحيح البخاري » كتاب: الدعوات، رقم: (٦٣٩٠).

(٢) أخرجه الترمذي في « الجامع » كتاب الدعوات، رقم: (٣٥٠٢)، **وحسَّنه الألباني** في « الكلم الطيب» رقم: (٢٢٦).

(٣) أخرجه مسلم في « صحيحه » كتاب: الذكر والدعاء، رقم: (٢٧٢٠).

* قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فَيَـا طَالِـبَ الدُّنْيَـا الدَّنِيئَـةِ جَاهِـداً أَلَا اطْلُـبْ سِـوَاهَا؛ إِنَّهَـا لَا وَفَـا لَهَـا

فَكَـمْ قَـدْ رَأَيْنَـا مِـنْ حَرِيـصٍ وَمُشْـفِقٍ عَلَيْهَـا فَلَـمْ يَظْفَـرْ بِهَـا أَنْ يَنَالَهَـا

الشرح

قوله (فيا طالبَ الدنيا الدنيئةِ جاهداً): يخاطبُ الناظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ من استغرق جهدَهُ ووقتَهُ وهمَّتهُ وذكاءَهُ في الدنيا، وأكبَّ عليها بكُليَّته: **(أَلا اطْلُبْ سِوَاها)** ومراده بسواها: أي الآخرة، فلا تكن من أهل الدنيا وكن من أهل الآخرة.

وإنَّما يكون المرء من أهل الآخرة؛ بطلب العلم، والتفقُّه في الدين، والإقبال على طاعة رب العالمين، ولهذا جاء عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: (منهومان لا يشبعان: صاحب العلم، وصاحب الدنيا، ولا يستويان؛ أما صاحب العلم، فيزداد رضا للرحمن، وأما صاحب الدنيا، فيتمادى في الطغيان، ثم قرأ عبد الله: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ وقال للآخر: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ﴾)[1].

قوله (إنَّها لاَ وَفا لَها): أي أنها تُغَرِّر بأهلها وأصحابها بمتاعها، ثم تزول عنهم ولا تبقى لهم كما قال تعالى: ﴿ مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾.

---

(١) أخرجه الدارمي في «سننه» باب: فضل العلم والعالم، رقم: (٣٤٤).

قوله **(فَكَمْ قد رأيّنا مِنْ حَريصٍ ومُشفقٍ عليها)**: أي كثيرٌ هم الذين انشغلوا بالدنيا وزخرفها عن العبادات والفرائض وأعمال الخير والبر والتقرب إلى الله فأصبحت همهم.

قوله **(فلمْ يَظفَرْ بها أن ينالَها)**: وإن نال منها شيئاً فسيذهب هذا الشيء عنه، أو يذهب عنه بالموت لا محالة كما تقدَّم.

❁ **قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

لَقَـدْ جَـاءَ فِـي آيِ «الحَدِيـدِ» وَ«يُونُـسٍ» ... وَفِـي «الكَهْـفِ» إِيضَـاحُ بِضَـرْبِ مِثَالِهَـا

وَفِـي «آلِ عِمْـرَانَ» وَسُـورَةِ «فَاطِـرٍ» ... وَفِـي «غَافِـرٍ» قَـدْ جَـاءَ تِبْيَـانُ حَالِهَـا

وَفِـي سُـورَةِ «الأَحْقَـافِ» أَعْظَـمُ وَاعِـظٍ ... وَكَـمْ مِـنْ حَدِيـثٍ مُوجِـبٍ لِاعْتِزَالِهَـا

الشرح

هذه الأبيات الثلاثة هي من أعظم ما احتوت عليه هذه المنظومة؛ لأنَّ بيان حالِ الدنيا ومتاعِها الزائل والتزهيد فيها جاء في نصوصِ الوحيين، فالناظم أشار فيها إلى كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكلام رسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

قوله **(لقد جاء في آي الحديد)**: يشير رَحِمَهُ اللَّهُ لقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ

أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴾.

وهو مَثَلٌ عظيم، صدّره الله ﷻ بقوله ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ ﴾ وهي كلمة تنبيهٍ يؤتى بها بين يدي الأمور العظيمة المهمة ليتنبَّه لها المرءُ ويُحسنَ فهمَها.

﴿ لَعِبٞ ﴾: فشأنُ الدُّنيا أنها مُشغِلةٌ لأبدان الناس وأوقاتهم، فتَضِيع أوقاتُهُم وتهلك أبدانهم باللعب.

﴿ وَلَهۡوٞ ﴾: أي أنَّها مُلْهِيَـةٌ للقلوب، وصارفة لها عما خُلِقَتْ لأجله.

﴿ وَزِينَةٞ ﴾: في الملبس والمركب والمسكن، وفيها أشياءُ تأسِرُ الإنسان وربما استولت على قلبه؛ فتصبحُ همَّـتُـهُ ومقصِدُهُ في تحصيلِها.

﴿ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ ﴾: فكُلَّما ظفرَ الإنسان بشيءٍ من متاع الدنيا أخَذَ يفخَـرُ به ويتعالى على الآخرين، وأنه أوسَعُ وأكثر وأفضل منهم ونحو ذلك.

﴿وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ﴾: فتكون هِمَّتُه أن يكون أكثرَ مالاً وولداً من غيرِه، كما قال الله تعالى: ﴿ أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ﴾.

﴿ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا﴾ يعني: كمثل مَطَرٍ نزلَ على أرض جَدْبةٍ أصابها القحط، فأنبتَتْ من كلِّ زوجٍ بَهِيج، وأُعْجِبَ الكفَّارُ -وهُم الزُّرَّاع- بنباتِهِ، واستولى على قلوبهم جمال الأَرضِ وزينتها، ثمَّ ينقضي هذا الجمال، ويَهْلِك النبات، وتذهبُ زينَـتـهُ.

فانظر -رحمك الله- إلى جمال الأرض وزينتها في الربيع إذا نزل المطر، وكيف يطيبُ النظر إليها، وتـمتَلئ العينُ بهجةً وسروراً كلَّما تكرَّر النظر إليها.

ثم انظر إلى الأرضِ ذاتها مرةً أخرى بعد انقضاء الربيع، قد لا تطيق النظر إليها من الجدب الذي أصابها.

فهذا مَثَـلٌ عظيمٌ ضربه رب العالمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لحال الدنيا وزخرفها ومتاعها في أَمْرٍ يشاهدُهُ الناس بين حين وآخر في حياتهم.

قوله (ويُونُس): ففي سورة يونس قد ضرَبَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَثَلاً آخر في بيان حال الدنيا، وهو قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ﴾ فلمَّا نزل هذا المطر وارتوت به الأرض أنبتتْ نباتاً صالحاً يأكُلُه وينتفع به الإنسان والأنعام، فيظنُّ الإنسان أنَّها باقيةٌ ومستمرَّة له، فهذا حال تزيُّن الدنيا وتجملها للمرء، لكن ماذا بعد ذلك؟ يقول تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. أي: كأنها ما كانت، فهذه حالة الدنيا، سواء بسواء، وإنَّما ينتفع بمثل هذه الأمثال العظيمة أهلُ التفكر والتأمُّل فتوقظ قلوبهم وتحييها، ويسلمون من الاغترار بزخرفها والافتتان بزينتها.

قوله (وفي الكَهْفِ): أي قوله تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾، (كذلك هذه الدنيا، بينما صاحبها قد أُعْجِبَ بشبابِهِ، وفاق فيها على أقرانِهِ وأترابِهِ، وحصَّل درهمَها ودينارَها، واقتطف من لذَّتهِ أزهارَها، وخاض في الشهوات في جميع أوقاتِهِ، وظنَّ أنه لا يزال فيها سائر أيامهِ، إذ أصابه الموت أو التلف لمالِهِ، فذهب عنه سرورُه، وزالت لذَّته وحبوره، واستوحش قلبُه من الآلام، وفارق شبابَه وقوَّته ومالَه، وانفرد بصالح أو سيئ أعماله، هنالك يعضُّ الظالم على يديه، حين يعلم حقيقة ما هو عليه، ويتمنى العَودَ إلى الدنيا، لا ليستكمل الشهوات، بل ليستدرك ما فرط منه من الغفلات؛ بالتوبة والأعمال الصالحات، فالعاقل الحازمُ الموفَّق يعرضُ على نفسه هذه الحالة، ويقول لنفسه: قدِّري أنك قد متِّ، ولا بدَّ أن تموتي، فأيَّ الحالتين تختارين؟

الاغترار بزخرف هذه الدار، والتمتعَ بها كتمتع الأنعام السارحة، أم العملَ لدارٍ أُكلُها دائم وظلُّها، وفيها ما تشتهيه الأنفسُ وتلذُّ الأعين؟ فبهذا يُعرَفُ توفيقُ العبد من خذلانهِ، وربحُهُ من خسرانِهِ) [١].

قوله (إيضاحٌ بضربِ مثالها): أي جاء في الآيات الثلاث المتقدِّمة توضيح حال الدنيا بضرب مِثَالٍ يكشف عن حقيقتها، وفائدة الأَمثال المضروبة تقريب

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» لابن سعدي (ص٥٥٠).

المعاني، وجعل الأمور المعنوية بمثابة الأمور المشاهدة المحسوسة، ولهذا قد أكثر الله ﷻ منها في القرآن؛ لعظيم نفعها، والله ﷻ يقول: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾.

قوله (وفي آلِ عمرانَ وسورة فاطرٍ وفي غافرٍ قد جاءَ تبيانُ حالها): فجاءَ في هذه السور الثلاث بيان حال الدنيا، وأنَّها متاع الغرور، فأمَّا آيةُ آل عمران فهي قول الله ﷻ: ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾.

وأمَّا آية فاطر فهي قول الله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾.

وأمَّا آية غافر فهي في النصيحة التي قدَّمها مؤمنُ آل فرعون ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾.

فبيَّن الله ﷻ في الآيات المتقدِّمة أن الدنيا متاع زائل فانٍ، وأنَّها متاعُ الغرور، والمتاعُ مهما كَبُر واتَّسعَ وعَظُمَ فهو زائل في نهايته وفانٍ، فلماذا يغتر الإنسان بها؟!

قوله (وفي سورةِ الأحقافِ أعظمُ واعظٍ): لعل الناظم رحمه الله يشير إلى ما جاء في أواخر سورة الأحقاف وهي قوله ﷻ: ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾، فهذا من أعظمِ وأكبرِ المواعظ؛ أن يعرفَ الإنسانُ أن العُمر الذي عاشَه في هذا الدنيا، والسنين التي قضاها ستكون إذا وقف يوم القيامة بين يدي الله جل جلاله كأنَّها ساعة من نهار.

فكيفَ يغترُّ الإنسان ويستولي على قلبهِ هذا الوقت القليل الذي سرعان ما ينقضي ويذهب؟!

ومِن العَجيبِ أن هذه الدنيا خلقها الله عَزَّوَجَلَّ وسخَّـرَها لأجل الإنسان؛ فسَخَّر له ما في السماوات وما في الأرض، وهيأ له خَيرات هذه الدنيا ليستعينَ بها على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، فكَيفَ ينشغل الإنسانُ بالأشياءِ التي خُلِقَت لأجلهِ عمَّا خُلِقَ هو من أجلِهِ! كما قال الله تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ فالله جَلَّجَلَالُهُ خَلَقَ الإنسان للعبادة، وأوجده للطاعة، ولم يَمنَعْهُ من كَسْب الرزق، وتحصيل المسكن والمركب، ولكن جاء التحذير من افتتان الإنسان بالدنيا حتى تأسر قلبَهُ، وتصبح غاية همِّهِ، فتشغَلَهُ عمَّا خُلِق مِنْ أجلِهِ.

قوله (وكم مِن حديثٍ موجِبٌ لاعتِزالها): من ذلك ما رواه أبو الدرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إن الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها؛ إلا ذكر الله، وما والاه، وعالماً، أو مُتعلماً**»[1]، وقال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء؛ فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء**»[2]

والنصوص في هذا المعنى كثيرة في الكتاب والسنة تحذيرًا من الافتتان بالدنيا والانشغال بها عن الآخرة.

---

(١) أخرجه الترمذي في « الجامع » أبواب الزهد، باب هوان الدنيا، رقم: (٢٣٢٢)، وابن ماجه في « السنن » أبواب الزهد، باب: مثل الدنيا، رقم: (٤١١٢)، **وحسَّنه الألباني** في « صحيح الترغيب والترهيب »رقم: (٧١).

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه»، كتاب: الرقاق، رقم: (٢٧٤٢).

قال الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ:

(لا تتمُّ الرغبة بالآخرة إلا بالزهد في الدنيا، ولا يستقيم الزهد في الدنيا إلا بعد نظرين صحيحين:

❊ **نظرٍ في الدنيا** وسرعة زوالها، وفنائها واضمحلالها ونقصها وخِسَّتِها، وأَلَمِ المزاحمة عليها، والحرص عليها، وما في ذلك من الغصص والنغص والأنكاد، وآخر ذلك الزوال والانقطاع، مع ما يعقب من الحسرة والأسف؛ فطالبها لا ينفك من هَمٍّ قبل حُصُولِها، وهَمٍّ حال الظَّفَرِ بها، وغَمٍّ وحزن بعد فواتها، فهذا أحد النظرين.

❊ **النظر الثاني النظر في الآخرة**، وإقبالها ومجيئها ولا بد، ودوامها وبقائها، وشرف ما فيها من الخيرات والمسرَّات، والتفاوت الذي بينه وبين ما هنا؛ فهي كما قال الله سبحانه: ﴿ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴾ فهي خيرات كاملة دائمة، وهذه خيالات ناقصة منقطعة مضمحلة.

فإذا تم له هذان النظران آثر ما يقتضي العقل إيثاره، وزهد فيما يقتضي الزهد فيه..)[١].

وذَكَرَ رَحِمَهُ اللَّهُ نحوَ هذا المعنى في موضعٍ آخر، وزادَ عليه أمراً ثالثاً، فقال:

(والذي يصحح هذا الزهدَ ثلاثةُ أشياء:

---

(١) كتاب « الفوائد » (ص١٣٦).

❊ **أحدها**: علم العبد أنها ظلٌّ زائل، وخيال زائر، وأنها كما قال الله -تعالى- فيها: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗا﴾.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وقال تعالى ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا﴾.

وسماها سبحانه وتعالى متاع الغرور، ونهى عن الاغترار بها، وأخبرنا عن سوء عاقبة المغترين بها، وحذَّرنا من مثل مصارعهم، وذمَّ من رَضِيَ بها، واطمأنَّ إليها.

وقال النبي ﷺ: « **ما لي وللدنيا؟ إنما أنا كراكب قال في ظل شجرة، ثم راح وتركها** »(١).

وفي المسند عنه ﷺ حديث معناه: إن الله جعل طعام ابن آدم، وما يخرج منه مثلاً للدنيا(٢)؛ فإنه وإن قـزَّحهُ وملَّحهُ فلينظر إلى ماذا يصير.

---

(١) تقدَّم تخريجه عند البيت رقم: (١).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» برقم: (٢١٢٧٧)، ولفظه: « عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: « **إن مطعم بن آدم جُعِل مثلاً للدنيا، وإن قَزَّحَهُ ومَلَّحهُ. فانظروا إلى ما يصير**»، وأخرج أيضاً حديثاً نحوه برقم: (١٥٧٤٧)، ولفظه: «عن الضحَّاك بن سفيان الكِلابي رضي الله عنه

فما اغتر بها ولا سكن إليها إلا ذو همة دَنِيَّـة، وعقلٍ حَقِير، وقَدْرٍ خَسِيس.

* **الثاني**: علمُهُ أن وراءَها داراً أعظم منها قدراً، وأجلَّ خطراً، وهي دار البقاء، وأن نسبتها إليها كما قال النبي ﷺ: « **والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه في اليَمِّ، فلينظر بِمَ ترجع؟**» [(١)]، فالزاهد فيها بمنزلة رَجُلٍ في يده دِرْهمُ زَغَـلٍ، قيل له: اطرَحهُ، ولك عِوضُهُ مائة ألف دينار مثلاً، فألقَاه من يـده، رجـاء ذلك العِـوَض، فالـزاهد فيها لكمـال رغبَـتِـهِ فيمـا هو أعظم منها زَهِدَ فيها.

* **الثالث**: معرفتُـهُ أنَّ زُهدَهُ فيها لا يمنعُـهُ شيئاً كتب له منها، وأن حِرصَهُ عليها لا يجلب له ما لم يُـقْض له منها، فمتى تيقَّن ذلك، وصار له به علمُ يَقينٍ؛ هان عليه الزهد فيها؛ فإنه متى تيَـقَّن ذلك، وثلج له صدره، وعلم أن مضمونَهُ منها سيأتيه؛ بقي حرصه وتعبُهُ وكدُّهُ ضائعاً، والعاقل لا يرضى لنفسه بذلك.

أن رسول الله ﷺ قال له: **يا ضَحَّاك ما طعامُك؟** قال: يا رسول الله، اللحم واللبن؟ قال: **ثم يصير إلى ماذا؟** قال: إلى ما قد عَلِمتَ، قال: **فإن الله تبارك وتعالى ضرب ما يخرج من ابن آدم مثلا للدنيا**»، **وصحَّحَهُ الألباني لغيره** في «السلسلة الصحيحة» رقم: (٣٨٢).

وقوله (**وإن قزَّحه ومَلَّحه**): قال ابن الأثير: (أي: أي تَوبَلَهُ، من القزح وهو التابل الذي يطرح في القِدْر، كالكَمُّون والكزبرة ونحو ذلك، والمعنى: أن الـمَطْعَم وإن تكلف الإنسان التنوق في صنعته وتطييبه فإنه عائد إلى حالٍ يكره ويستقذر، فكذلك الدنيا المحروص على عمارتها، ونظم أسبابها راجعة إلى خراب وإدبار). «النهاية في غريب الحديث» (٤/ ٥٨).

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب الجنة ونعيمها وأهلها، رقم: (٢٨٥٨).

فهذه الأمور الثلاثة تسهل على العبد الزهد فيها، وتثبت قدمه في مقامه، والله الموفق لمن يشاء »[١].

* قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لَقَـدْ نَظَـرُوا قَـوْمٌ بِعَيْـنٍ بَصِيـرَةٍ إِلَيْهَـا فَلَـمْ تَغْرُرْهُـمُ بِاخْتِيَالِهَـا

أُولَـئِكَ أَهْـلُ اللَّـهِ حَقّـاً وَحِزْبُـهُ لَهُـمْ جَنَّـةُ الفِـرْدَوْسِ إِرْثـاً، وَ يَـا لَهَـا!

الشرح

هذه حالُ أهل الحق والهدى، ومن وفَّقَهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وشرح صدورهم، وهداهم إلى صراطه المستقيم، فإنَّهم نظروا إلى الدنيا **(بعينٍ بصيرة)**: فالنظر إن كان عن بصيرةٍ وتأمُّلٍ في حقيقة الدنيا وهوانها على الله عَزَّوَجَلَّ، وسرعة انقضائها وزوالها، وكونها متاع الغرور؛ هو النظر النافع للعبدِ، وهو نظرُ أهل الهداية والحقِّ.

قوله (فلم تغرُرهم): هذا نتيجة النظر النافع المتقدِّم أنَّها لم تغررهم **(باخْتِيَالها)** أي: بزينتها وزُخرُفِها ومتاعِهَا.

قوله (أولئك): أي الذين وفقهم الله عَزَّوَجَلَّ لمعرفة حقيقة الدنيا، ولم تغررهم، ولم يغتروا بزُخْرُفها: **(أهلُ الله حقاً وحزبهُ)**: والمراد بهم خاصَّتُهُ، وأولياؤه؛ الذين اختصَّهَم برحمتِهِ وعظيم فضلِهِ، وبيَّن لنا ربُّنا عَزَّوَجَلَّ أن أولياءه ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا

(١) « طريق الهجرتين » (٢/ ٥٥٠-٥٥٤).

هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾، وثبتَ في الحديث عن نبينا الكريم ﷺ أنه قال: «إن لله تعالى أهلين من الناس؛ أهل القرآن هم أهل الله وخاصَّتُه»[(١)].

قوله **(لهمْ جنةُ الفردوس)**: أعدها الله ﷻ نزلاً لهم، ومثوبةً، وكرامة.

قوله **(إرثاً ويا لها)**: أي ويا لها من إرث ونعمةٍ وعطية؛ كما قال الله ﷻ ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾، فهؤلاء هم الوارثون لهذه النعمة الجليلة والمَكْرُمة العظيمة؛ جنةِ الفردوس.

وقد ذكر الحافظ النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مقدمة كتابه النافع « رياض الصالحين » أبياتاً، وهي تنسب للإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، تحوي المعنى الذي أشار إليه الناظم:

إنّ لله عِـبـاداً فُـطَـنـا ... طلّقوا الدُّنيا وخَافُوا الفِتَنا
نَظَروا فيهـا فلمَّا عَلِمُوا ... أنَّـهـا ليْسَتْ لِـحَيٍّ وَطَـنا
جَعَلوها لُـجَّةً واتّخذوا ... صَالحَ الأَعمالِ فيـها سُفُـنَا

* قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَمَـالَ إِلَيْهَـا آخَـرُونَ لِجَهْلِهِـمْ ... فَلَمَّـا اطْمَأَنُّـوا أَرْشَـقَتْهُمْ نِبَالَهَـا
أُولَـئِكَ قَـوْمٌ آثَرُوهَـا فَأُعْقِبُـوا ... بِهَـا الخِـزْيَ فِـي الأُخْـرَى، وَذَاقُـوا وَبَالَهَـا

---

(١) أخرجه ابن ماجه في « السنن » أبواب: الإيمان، باب: فضل من تعلم القرآن وعلَّمه، رقم: (٢١٥)، **وصححه الألباني**، انظر « السلسلة الضعيفة » رقم: (١٥٨٢).

الشرح

هذا قسمٌ، آخر من الناسِ: وهم الذين غرتهم الدنيا، وفُتِنوا بزخرفها، وأَلـهَتم بمتاعِها، وسَلبَتْ أعينَهم زينتُها، فمالوا إليها، وأصبحت هي بغيتهم، وأكبر همِّهم، ومنتهى قصدهم.

قوله: **(ومال إليها آخرون لِجهلهم)**: فسَببُ هذا الافتتان والاغترار هو الجهل بالله ﷻ، وبحَقِّهِ الواجبِ عليهم، وكذلك لجهلهم بحقيقة الدنيا ومآلِها.

قوله: **(فلما اطْمَأنوا)**: لهذا الزخرف الزائل والمتاع الفاني، وظنوا أنهم باقون في هذا المتاع والزخرف؛ **(أرْشَقتهُم نِبَالُها)**: الرَّشقُ: هو الرمي، والمقصود أنها رَمَتْهُم بنبالها، فمنهم من هَلَك على عِصيانهِ وغرورهِ وإِعراضهِ عن الله ﷻ، ومنهم من ازداد طغياناً وكفراً بما أوتي من متاع الدنيا وزخرفها، ومنهم مَن عاش حياةً هو فيها محرومٌ من لذة الطاعة، وهناءَة التقرب إلى الله ﷻ، فأهلكتهم أشدّ الهلكة.

قوله: **(أُولئك قومٌ آثرُوها)**: أي آثروا الحياة الدنيا على الآخرة، ولم يكن لهم مراد ولا رغبة إلا بها، كما قال الله ﷻ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ فماذا كانت النتيجة؟ **(فأُعْقِبُوا بها الخزي فِي الأُخْرى)** أي كانت العاقبة هي الخزي في الدار الآخرة كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾.

قوله: **(وَذَاقُوا وَبَالـهَا)**: الوَبَال هو سوء العاقبة، والمآل الوخيم، والمقصود أنَّهم ذاقوا الخزي وسوء العاقبة يوم وقوفهم بين يدي الله جل جلاله.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومتى رأيت القلب قد ترحل عنه حبُّ الله والاستعداد للقائه وحل فيه حب المخلوق والرضا بالحياة الدنيا والطمأنينة بها فاعلم أنه قد خسف به)[1].

* قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فَقُـلْ لِلَّذِيـنَ اسْـتَعْذَبُوهَا: رُوَيْدَكُـمْ! سَـيَنْقَلِبُ السُّـمَّ النَّقِيـعَ زُلَالُهَـا

لِيَلْهُـوا وَيَغْتَـرُّوا بِهَـا مَـا بَـدَا لَهُـمْ مَتَـى تَبْلُـغ الحُلْقُـومَ تُصْـرَمْ حِبَالُهَـا

الشرح

(فَقُل) يا من وَفَّقك الله ﷻ لحسن البصيرة، والمعرفة بحال الدنيا (للذين استعذبوها): وافتتنوا بزخرفها (رُويدَكُمْ): أي تمهَّلوا، وانظروا في عواقب هذا الغرور والافتتان قبل أن تندموا في موطن لا ينفعكم فيه الندم، وانظروا إلى ماذا سيؤول هذا الذي استعذبتموهُ، (سَينْقَلِبُ السُمَّ النّقِيعَ زُلَالُهَا): السُّمُّ النَّقيعُ، وسمٌّ ناقع، وسمٌّ منقوع؛ أي بالغٌ وشديدٌ الإضرار، فهذا الذي ترونَهُ عَذْباً زُلالاً من متع الدنيا سينقَلِبُ إلى هذه الحال.

قوله (لِيَلْهُوا ويَغْتَرُّوا بِها ما بَدا لَهم): وهذا كلام عظيم، فإنَّه يُقال للمفتون بالدنيا: لو لَـهيتَ بهذه الدنيا ومتاعِها وزخرفها؛ فإلى متى سيستمرُّ هذا اللهو!؟

---

(١) «بدائع الفوائد» (٣/ ١٢٠٠).

أتنتظِرُ أن يفجأكَ ويدهمكَ الموت وأنت على هذه الغفلة؟ كما قال تعالى: ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾.

وهؤلاء اللَّاهون الغافلون متى عاينوا الموت تَـمَنَّوا أن يُؤَجَّلَ؛ ليعملوا صالحاً غير الذي كانوا يعملون، ولهذا يُذكَـرُ عن الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه أراد أن يَعِظَ أحد الـمُفَـرِّطين المعرضين فأخذَهُ إلى القبور، فقال له: (يا فلان لو كنت مكان هؤلاء ماذا تتمنى؟ قال: والله أتمنَّى أن يُعيدَني اللهُ للدنيا لأعمل صالحاً غير الذي كنت أعمل، فقال: يا هذا أنت فيما تتمناه، فاعمل)؟؟

قوله (مَتى تَبلُغِ الْحُلْقُومَ تُصْرَمْ حِبَالُها): أي متى تبلغ الروحُ الحلقومَ ستنقطع حبالُ الدنيا، وهي العَلائـق والصِّلاتُ التي يرتـبط بها الإنسان في الدنيا، من التجارات، والأموال، أو القصور، أو غيرها، كلُّها ستنتهي وتنقَطِع، إذا بلغت الروحُ الحلقومَ، لأن النبيَّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يقول: « **إن الله يقبل توبة العبد ما لم يُغرغِر** »[1]، أي ما لم تبلغ الروحُ الحلقوم، كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ ﴾ فإذا حضر الموتُ وصار عَياناً، وبلغت الروح الحلقوم، فلا تنفع التوبة حينئذ صاحبها.

(١) أخرجه الترمذي في « الجامع » أبواب الدعوات، باب في فضل التوبة والاستغفار، رقم: (٣٥٣٧)، وابن ماجه في « السنن » أبواب الزهد، باب ذكر التوبة، رقم: (٤٢٥٣) **وحسَّنه الألباني** في « صحيح الترغيب والترهيب » رقم: (٣١٤٣).

ومقصود الناظم رَحِمَهُ اللَّهُ بهذا الكلام الحثُّ على المبادرة بالتوبة والإنابة، والرجوع إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

* قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَيَـوْمَ تُوَفَّـى كُلُّ نَفْـسٍ بِكَسْـبِهَا ... تَـوَدُّ فِـدَاءً لَـوْ بَنِيهَـا وَمَالَهَـا

وَتَأْخُـذُ إِمَّـا بِاليَمِيـنِ كِتَابَهَـا ... إِذَا أَحْسَـنَتْ، أَوْ ضِـدَّ ذَا بِشِـمَالِهَا

وَيَبْـدُو لَدَيْهَـا مَـا أَسَـرَّتْ وَأَعْلَنَـتْ ... وَمَـا قَدَّمَـتْ مِـنْ قَوْلِهَـا وَفِعَالِهَـا

الشرح

قوله (ويوم توفَّى كلُّ نفسٍ بكَسْبِها): أي بما كسَبت وحَصَّلَت في هذه الحياة الدنيا، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ وقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾.

فقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ مَّا كَسَبَتْ ﴾ أي ما قدمَتْهُ في هذه الحياة من أعمال فإنها سوف ﴿ تُوَفَّىٰ ﴾ أي تُجازى جزاءً وافياً يوم القيامة عند الوقوف بين يدي الله عَزَّ وَجَلَّ.

وينبغي للعبد أن يُدْرِك ذلك، وأن أيامه وشهوره وأعوامه؛ وكل ما يقع فيها من أقوال وأعمال محصاةٌ عليه، وسيوفَّى ذلك كلَّه يوم القيامة.

قوله (تَوَدُّ فداءً لو بَنِيها ومالها): فالـمُعْرِضُ والمفرِّط في ذلك اليوم يندم ندماً شديداً على تفريطه وتضيعيهِ حينما يرى العذاب، ويود أن يفدي نفسه من العذاب وَسخَطِ الجبَّار ﷻ ولو ببَـنِـيه وماله؛ كما قال الله ﷻ: ﴿يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ ١٣ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ ١٤﴾ ويقول تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ﴾ أي من عذاب الله وعقوبته.

قوله (وَتَأخُذُ إمَّا باليَمينِ كِتَابَها، إذا أَحْسَنَت): وهم أهل القِسم الأوَّل المتقدِّم؛ الذين وفقهم الله ﷻ للعلم النافع والعمل الصالح، ولم يغتروا بالدنيا وزخرفها، فهؤلاء يأخذون كتبهم بأيمانهم؛ وذلك جزاء الإحسان الذي كان منهم في هذه الحياة الدنيا.

قوله (أَو ضِدِّ ذَا بِشِمَالِها) وهؤلاء هم القسم الثاني، وهم الذين لم يُحسِنوا بل أساؤوا وغرتهم الحياة الدنيا، فإنهم يأخذون كتابهم بشمالهم.

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ١٩ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ٢٠ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ٢١ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ ٢٣ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ ٢٤ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ٢٥ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ٢٦ يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ٢٧ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ٢٩ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ٣٠ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ٣١ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ﴾.

قوله (ويبدو لَدَيْها ما أَسَرَّتْ وأَعْلَنَتْ، وما قدَّمَتْ من قولِها وفعالِها): في ذلك اليوم تبدو للإنسان الأعمال التي قدمها، كما قال تعالى: ﴿ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ﴾ وسيقفُ الإنسان حينها على عملِهِ كُلِّه ويراهُ مَسْطُوراً في كتابِ أعماله، كما قال تعالى: ﴿ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَا ﴾، ويجدُهُ حاضِراً عنده، ثمَّ يُجازى عليه؛ كما قال تعالى: ﴿ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى ﴾، وقال أيضاً: ﴿ لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۢ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴾، فمَن وجدَ خيراً فليحمدِ الله، ومن وجدَ غيرَ ذلك فلا يَلومَنَّ إلا نفسه.

فهذا كله مما يدعو العبدَ إلى التيقظ والتفطن، والأخذ بالحزم والعزم، وأن يزمّ نفسه بزمام الحق والهدى، وأن يحذرَ أشد الحذر من التفريط والتهاون والتسويف والتأجيل.

* قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بِأَيْدِي الكِرَامِ الكَاتِبِينَ مُسَطَّرٌ ... فَلَمْ يُغْنِ عَنْهَا عُذْرُهَا وَجِدَالُهَا

هُنَالِكَ تَدْرِي رِبْحَهَا وَخَسَارَهَا ... وَإِذْ ذَاكَ تَلْقَى مَا إِلَيْهِ مَآلُهَا

فَإِنْ تَكُ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ وَالتُّقَى ... فَإِنَّ لَهَا الحُسْنَى بِحُسْنِ فِعَالِهَا

تَفُوزُ بِجَنَّاتِ النَّعِيمِ وَحُورِهَا ... وَتُحْبَرُ فِي رَوْضَاتِهَا وَظِلَالِهَا

وَتُرْزَقُ مِمَّا تَشْتَهِي مِنْ نَعِيمِهَا ... وَتَشْرَبُ مِنْ تَسْنِيمِهَا وَزُلَالِهَا

الشرح

فكل ما قدَّمهُ العبدُ من قولٍ أو فِعلٍ قد سُطِّرَ بأيدي الملائكة الكاتبين في كتابِ أعماله؛ كما قال ﷻ: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾، فإنَّ الله ﷻ قد وَكَلَ إلى ملائكةٍ كتابة الأعمال وتسطيرها ونسخها، فيكتبون كلَّ ما يقوله العبدُ ويفعله، كما قال تعالى: ﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فالمراد بقوله ﴿ نَسْتَنسِخُ ﴾ أي: بأمرنا للملائكة أن تكتبَ أعمالكم، فتُحْصَى عليكم مسطرةً في كتابٍ، تجدونهُ يوم القيامة حاضراً أمامَكم.

قوله (فَلَمْ يُغنِ عنها عُذْرُها وجِدَالُها): أي إذا قامت هذه النفس الـمُفرِّطة لتعتذرَ أو تجادلَ عن حالِها ومآلها في ذلك اليوم: فلن تنفعها المعذرة، ولن ينفعها الجدال؛ لأنه يوم الجزاء والحساب.

قوله (هُنَالِك تَدْري رِبْحَها وخَسَارَها): فإذا أخذ الإنسانُ كتابَهُ، ثمَّ وجد أعمالَهُ مُحصاةً عليه، ولم يبقَ إلا حُلُول الجزاء؛ هنالك يظهر الرابح؛ الذي ينقلب إلى أهله مسروراً، أو الشقيُّ الخاسر والعياذ بالله.

قوله (وإذْ ذَاكَ تَلْقَى مَا إليه مَآلُها): أي ما تؤول إليه؛ لأن ذاك اليوم هو يوم الجزاء، فالمحسن يؤول أمرُهُ إلى الفوز بالإحسان، كما قال تعالى: ﴿ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ

أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴾ وقال: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾، والمسيء يؤول أمرُهُ إلى العقوبة والـخُسران كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ ﴾.

وبعد ذلك فصَّل الناظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مآل الـمُحسنين، ومآل الـمُسيئين، فقال في مآل الـمحسنين الرابحين:

(فَإِنْ تَكُ مِنْ أَهْلِ السَّعَادةِ والتُّقَى): أي إذا كان العبد من الذين كتب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لهم السعادة، فسلك بهم طريق السعادة، وكانوا من الملازمين لتقوى الله عَزَّ وَجَلَّ.

(فَإِنْ لَهَا الحُسْنَى بِحُسْنِ فِعَالِها): فأهل السعادة والتـقى لهم عند الله الحسنى؛ وذلك لـحُسْنِ فعالهم التي قدموها في الحياة الدنيا، ثم فصَّل رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الثواب والنعيم فقال:

(تَفُوزُ بِجَنَّاتِ النعيمِ): التي أعدها الله عَزَّ وَجَلَّ نزلاً لعباده المتقين، وأولياءه المقربين، وذلك هو الفوز العظيم.

قوله **(وحُورِها)**: أي وتفوز بما أعدَّهُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيها لهم من الحور العين.

قوله **(وتُحْبَرُ)**: أي تُنَعَّم **(في رَوضَاتِها وظِلالِها)**، أي في روضات الجنة كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ أي: يتنعمون ويهنأون ويتلذذون بنعيم الجنة.

قوله **(وتُرْزَقُ)** أي في الجنة **(ممَّا تَشْتَهي من نعيمِها)**: فيهنؤون بنعيم الجنة؛ ففيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلبِ بشر، قال تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾.

قوله (وتشربُ من تَسْنيمها وَزُلاَلِها): يشير لقول الله ﷻ: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ﴾، وهي أعلى أشربة الجنة، ولذا كانت خالصة للمقربين كما قال ﷻ ﴿يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾.

* **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَإِنَّ لَهُمْ يَوْمَ المَزِيدِ لَمَوْعِداً ... زِيَادَةَ زُلْفَى، غَيْرُهُمْ لَا يَنَالُهَا

وُجُوهٌ إِلَى وَجْهِ الإِلَـٰهِ نَوَاظِرُ ... لَقَدْ طَالَ مَا بِالدَّمْعِ كَانَ ابْتِلَالُهَا

تَجَلَّى لَهَا الرَّبُّ الرَّحِيمُ مُسَلِّماً ... فَيَزْدَادُ مِنْ ذَاكَ التَّجَلِّي جَمَالُهَا

الشرح

هذا أعظمُ نعيمٍ لأهل الجنة وأكملُهُ؛ النظر إلى وجه الله الكريم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهي الزيادة التي جاءت في قوله ﷻ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٌۖ﴾.

قوله (وَإِنَّ لَهُمْ يَومَ المزيدِ لموعداً): المراد بيوم المزيد: يوم الجمعة، يُكْرِمِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيه أهلَ الجنةِ ويُشرّفهم بالنظر إليه، كما صحَّ عن نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في الحديث أنَّ جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول: « **ونحن ندعوه في الآخرة يوم المزيد** »(١).

---

(١) أخرجه الطبرانيُّ في « المعجم الأوسط » رقم: (٢٠٨٤)، وقال الألباني : (حسن صحيح). « صحيح الترغيب والترهيب » حديث رقم (٦٩٤).

وثبت عن النبي ﷺ أيضاً أنه قال: « **فليسوا هم في الجنة بأشوق إلى شيء منهم إلى يوم الجمعة، ليزدادوا منه كَرامة، وليزدادوا نظراً إلى وجهه** ﷻ »(١).

قوله **(زيادةَ زُلْفى)**: أي لهم زيادةُ كرامةٍ ومَنزِلةٍ فوق النعيم والإكرام الذي يمنُّ الله ﷻ عليهم به في الجنة؛ مِما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر؛ فيُكرمُهم زيادةً على ذلك برؤيتهِ ﷻ، وفي هذا يقول الله ﷻ: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾، وثبت في السنة تفسيرها بالنظر إلى وجهه ﷻ (٢).

قوله **(غَيْرُهُمْ لا يَنالُها)**: لأنَّ الله ﷻ يقول: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾، فأهل الإيمان هُم الموعودون برؤيتهِ، ولا ينال هذا الشرف إلا هم.

كما بشَّر النبيُّ ﷺ أهل الإيمان فقال لهم: «**إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تُضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تُغْلَبوا على صلاة قبل طلوع الشمس، وصلاة قبل غروب الشمس، فافعلوا**» (٣)

قوله **(وجوهٌ)**: أي وجوه أهل الإيمان، **(إلى وجْهِ الإلهِ نَواظر)** أي بأبصارها

---

(١) أخرجه البزَّار في « البحر الزخار» (١٤/ ٦٨) رقم: (٧٥٢٧)، **وجوَّد إسناده الحافظ المنذري، وحسَّنه الألباني** رَحِمَهُمَاٱللَّهُ. « صحيح الترغيب والترهيب » رقم: (٣٧٦١).

(٢) أخرجه مسلم في « صحيحه » كتاب الإيمان، رقم: (١٨١-١٨٢).

(٣) **أخرجه البخاري في** « **صحيحه** » كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾ رقم (٧٤٣٤)، **وأخرجه مسلم في** « **صحيحه** » كتاب المساجد، رقم: (٦٣٣).

حقيقةً، كما قال الله ﷻ: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ فقوله ناضرة: مِن النُّضْرَة، وهي الحُسْن والبهاء، وقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ أي بأبصارها.

قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وحُقَّ لها أن تَنضُرَ وهي تنظر إلى الخالق»[(١)].

قوله (لَقدْ طَالَ ما بالدَّمعِ كانَ ابتلَالُـها): أي كم ابتلَّتْ أعينُهُم في الدنيا بالدَّمع، ولعل الدمعَ هنا متعلقٌ بما سبَق؛ وهو شوق النظر إلى الله ﷻ. فقد ذكر الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ البكاءَ أنواعٌ؛ ومن جملتها بكاءُ المحبةِ والشوق[(٢)].

فكم اشتاقت قلوبهم، وتاقت نفوسهم، وطمعوا غاية الطمع والرجاء وأكثروا من دعائهم في الدنيا أن يكرمهم ربُّهم بهذا النظر، مؤتسين بنبيهم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في دعاءه: «**وأسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك؛ في غير ضراء مُضِرَّة، ولا فتنةٍ مُضِلَّة**»[(٣)].

قوله (تجلَّى لها الربُّ الرحيمُ مسلِّماً): **التجلي** هو كمال الظهور، فالله ﷻ يتجلَّى لتلك الوجوه فتزداد كرامةً ورِفعةً بالنظر إلى ربها الكريم، وذكر الناظم

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٢٣/ ٥٠٧).

(٢) «زاد المعاد في هدي خير العباد» (١/ ١٧٧)، وجملة الأنواع التي ذكرها رَحِمَهُ ٱللَّهُ ستة: (بكاء الرحمة والرقة، **والثاني**: بكاء الخوف والخشية، **والثالث**: بكاء المحبة والشوق، **والرابع**: بكاء الفرح والسرور، **والخامس**: بكاء الجزع من ورود المؤلم وعدم احتماله، **والسادس**: بكاء الحزن).

(٣) أخرجه النسائي في «المجتبى» كتاب السهو، باب نوعٌ آخر من الدعاء، رقم (١٣٠٥)، وصححه الألباني في «الكلم الطيب» (١٠٦)

اسم (الرَّحِيم) تنبيهاً إلى أن هذه الكرامة العظمى إنما نالوها برحمة الله ﷻ كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾.

وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: « **فيتجلى الله للمؤمنين يضحك**» (١)، أي يوم القيامة.

قوله (**مُسَلِّماً**): كما جاء في القرآن الكريم: ﴿ سَلَٰمٌ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ﴾ فالناظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ضمَّن قوله: (**الرَّبُّ الرَّحيمُ مُسلِّماً**) معنى هذه الآية.

قوله (**فَيَزْدَادُ مِنْ ذَاكَ التَّجَلِّي جَمالُها**): أي يزدادون حسناً وجمالاً بعد هذا التجلِّي والظهور، وكلمَّا تكرر هذا النظر للربِّ العظيم ازداد الحسن والجمال، كما جاء عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: « **إن في الجنة لسوقاً، يأتونها كل جمعة، فتهب ريح الشمال فتحثو في وجوههم وثيابهم، فيزدادون حسناً وجمالاً، فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسناً وجمالاً، فيقول لهم أهلوهم: والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً، فيقولون: وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً** » (٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (يجوز أن يكون هذا الحديث مُختصراً من بقية الأحاديث **بأن سبب الازدياد: رؤية الله تعالى**، مع ما اقترن بها) (٣).

---

(١) أخرجه مسلمٌ في « صحيحه » كتاب الإيمان، رقم: (١٩١).

(٢) أخرجه مسلمٌ في « صحيحه » كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، رقم: (٢٨٣٣).

(٣) « مجموع الفتاوى » (٦/ ٤٠٨).

وهذا المعنى أيضاً تدل عليه الآية الكريمة المتقدمة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾.

وجاء في «صحيح مسلم» من حديث صهيبٍ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة، وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ** ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾»[1].

❊ **قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

بِمَقْعَدِ صِدْقٍ حَبَّذَا الجَارُ رَبُّهُمْ ... وَدَارِ خُلُودٍ لَمْ يَخَافُوا زَوَالَهَا

فَوَاكِهُهَا مِمَّا تَلَذُّ عُيُونُهُمْ ... وَتَطَّرِدُ الأَنْهَارُ بَيْنَ خِلَالِهَا

عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ، ثُمَّ فُرْشُهُمْ ... كَمَا قَالَ فِيهَا رَبُّنَا وَاصِفاً لَهَا

بَطَائِنُهَا إِسْتَبْرَقٌ، كَيْفَ ظَنُّكُمْ ... ظَوَاهِرُهَا؟! لَا مُنْتَهَى لِجَمَالِهَا

الشرح

هذه جملة من أوصاف الجنة في ضوء ما دلت عليه النصوص وجاءت به الأدلة:

---

(١) «صحيح مسلم» كتاب الإيمان، رقم: (١٨١-١٨٢).

قوله (بِمَقعدِ صِدْقٍ): المراد بالمقعد الصدق الجنة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾، وسُمِّيت الجنةُ مقعدَ صدقٍ لأنَّها المَـقْعدُ الذي يُنالُ فيه كُلُّ شيءٍ حَسَن، وكُلُّ نعيمٍ وهناء وقُرَّة عين، ومن جملتهِ مجاورة ربِّ العالمين جَلَّ جَلَالُهُ -كما سيأتي-، فالأمرُ التامُّ يوصف بهذا الوصف؛ مثل أن يُقال: الـمحبة الصادقة، والمودة الصادقة، وهكذا.

قوله (حَبَّذَا الـجَارُ رَبُّـهمْ): ومن ذلك ما ورد في دعاء امرأة فرعون ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾ قال العلماء: إنها اختارت في دُعائها الجارَ قبلَ الدار[1].

قوله (ودَارِ خُلودٍ): فمِن إكرام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لأهل الجنَّة أن جعلهم خالدين فيها أبد الآباد، ونعيم الجنة لا يحول ولا يزول، ولا ينقطع ولا يفنى.

قوله (لَـمْ يَـخَافُوا زَوَالَـها): بخلاف النعيم الذي يظفر به الإنسان في الدنيا فإنه عن قريب سينقطع ويزول كما تقدَّم.

قوله (فَواكِهُهَا مِـما تَلذُّ عُيُونُهم): ففي الجنة من الفواكه والطعام ما لذَّ وطاب؛ ومن جمال فواكِـه الجنة وحسنها أنَّ الأعين تلـذُّ فيها قبلَ البطون، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

قوله (وَتَطَّرِدُ الأَنهَارُ بَيْنَ خِلَالِها): أي تجري الأنهار من خلال هذه الجنة؛ كما

---

(١) انظر: «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (١٤/ ٦٦).

قال تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾، في غير ما آية.

قوله **(على سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ)**: أي يتَّكئون ويجلسون على سُررٍ مَوضونةٍ؛ ومعنى **(مَوْضُونَةٍ)** أي: مَنْسوجةٍ بالذهب والجوهر، وهذا غاية في الحسن والجمال والتمام؛ كما قال تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مَّوۡضُونَةٖ ۝١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ﴾.

قوله **(ثُمَّ فُرْشُهُمْ)**: وكذلك الفرش التي يجلسون عليها: **(بَطَائنُهَا إسْتَبْرَقٌ)** **والإستبرق**: هو ما غلظ من الديباج؛ كما في قوله ﷻ: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ ۝٥٤﴾

قوله **(كَيفَ ظَنُّكُمْ ظَواهِرُها ؟!)**: إذا كان كانت البطائن من إستبرق التي هي في غاية الحسن والجمال، فكيف ظنُّكم بظواهرها؟

وهذا المعنى الذي انتظمه هذا البيت وردَ عن جماعةٍ من الصحابة ﭫ، منهم ابن مسعودٍ وأبو هريرة، حيث قالا عند هذه الآية: (قد أُخْبِرتُم بالبطائن، فكيف لو أخبرتم بالظواهر؟)[١].

قوله **(لا مُنْـتَـهَى لِـجَـمَـالِـها)**: أي: جمال الظواهر لا منتهى لهُ، وقد قيل لسعيد بن جُبير: هذه البطائن من إستبرق، فما الظواهر؟ فقال: (هذا مما قال الله ﷯: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾)[٢].

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٢٢/ ٢٤٣) وانظر: «معالم التنزيل» للبغوي (٤/ ٢٩٣).

(٢) المصدران السابقان.

وثَـبَت في الحديث عن النبي ﷺ قال: « قال الله ﷻ: **أعددتُ لعباديَ الصالحين: ما لا عَينٌ رأتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعت، ولا خَطَر على قلبِ بَشَر** »(١).

❊ قال رَحِمَهُ اللهُ:

وَإِنْ تَكُــنِ الأُخْــرَى فَوَيْـلٌ وَحَسْــرَةٌ ... وَنَــارُ جَحِيــمٍ مَــا أَشَــدَّ نَكَالَهَــا!

لَهُــمْ تَحْتَهُــمْ مِنْهَــا مِهَــادٌ، وَفَوْقَهُــمْ ... غَــوَاشٍ، وَمِــنْ يَحْمُــومِ سَــاءَ ظِلَالُهَــا

طَعَامُهُــمُ الغِسْــلِينُ فِيهَــا، وَإِنْ سُــقُوا ... حَمِيمــاً بِــهِ الأَمْعَــاءُ كَانَ انْحِلَالُهَــا

أَمَانِيُّهُــمْ فِيهَــا الهَــلَاكُ، وَمَــا لَهُــمْ ... خُــرُوجٌ وَلَا مَــوْتٌ، كَمَــا لَا فَنَــا لَهَــا

الشرح

هذا معطوف على ما سبق، فبعدَ أن ذكرَ القِسمَ الأوَّل في قوله (فإنْ تَكُ مِنْ أَهلِ السّعادةِ) ثم ذكرَ حالَهم وما أعدَّ الله ﷻ لهم من النعيمِ والسعادة؛ أردفَ ذلك بِذكرِ القسمِ الآخر فقال: (وإنْ تَكُنِ الأُخْرى) وهم أهل الشقاوة والخسارة، (فَوَيْلٌ وَحَسْرَةٌ) **والويل: هو الهلاك**، وقيل: الـخزي، وقيل: الـعذابُ، وقيل: وادٍ في جهنم.

---

(١) أخرجه مسلم في « صحيحه » كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، رقم: (٢٨٢٤).

وقد جاءت هذه اللفظة (وَيْل) في الوعيد للمكذبين والمعرضين في مواطن عديدة في القرآن؛ منها: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾، وقوله ﷻ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾، وقوله ﷻ: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾.

قوله (وحَسْرَةٌ): أي ندامةٌ وأَسَف؛ في وقتٍ لا تنفع فيه الندامة.

وجاءت تسمية يوم القيامة بيوم الحسرة في قوله ﷻ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ وذلكَ لأَنهم يتحسرون وتتقطع أفئدتهم أسفاً وندامةً على ما قدَّموا في الدنيا، ولكن لا يفيدهم ذلك ولا ينفعهم.

قوله (وَنَارُ جَحِيمٍ مَا أَشَدَّ نَكَالَهَا): النَّكَال هو العقوبة، أي: ما أشد العقوبة التي أعدت لأهل الشقاوة في النار، وأورد رَحِمَهُ اللَّهُ بعض الأمثلة لهذا النَّكَال فقال:

(لَهُمْ تَحْتَهُمْ مِنْهَا مِهَادٌ وَفَوْقَهُمْ غَوَاشٍ): يشير إلى قول الله ﷻ في سورة الأعراف: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾، فقول الله ﷻ: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ أي: فراش، فالفراش الذي يفترشونه من جهنم، وقوله ﷻ: ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ أي: لحاف، فلحافهم وغطاؤهم مِن جهنَّم.

قوله (وَمِنْ يَحْمُوم سَاءَ ظِلَالُهَا): يشير إلى ما دلَّ عليه قول الله ﷻ في سورة الواقعة: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾، فالظلُّ الذي يستظلُّون به مِنْ يَحْموم،

واليحمومُ: هو دُخانٌ شديد السواد، ومِن وصفِهِ أيضاً أنه: ﴿ لَّا بَارِدٍ﴾ أي: المنزل، ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾ أي: الـمَنظَر.

قوله (طَعَامُهُمُ الغِسْلِين): كما قال الله ﷻ: ﴿ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴾ والغسلين: هو صَديد أهلِ النار الخارجُ من جروحِهِم وقُروحهم.

قوله (وإنْ سُقُوا حَمِيماً بِهِ الأمْعَاءُ كَانَ انْحِلَالُها): أي تتقطع أمعاؤهم بشربهم لهذا الماء شديد الحرارة، كما قال تعالى: ﴿ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾.

ثم ختم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بذكر حال الكفار أهل النار فيها حيث ذكر أمورًا أربعة:

الأول: **(أَمَانِيُّهُمْ فِيهَا الهَلَاكُ)**: فأكبرُ أُمنيةٍ لأهلِ النار وهم يُقاسون فيها أشدَّ العـذاب أن يُهلكَهم الله ﷻ؛ كما قال ﷻ: ﴿ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾، وقوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴾.

الثاني: **(ومَا لَهُمْ خُرُوجٌ)**: أي ليس لهم خروجٌ منها، كما قال الله ﷻ: ﴿ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾.

الثالث: **(وَلَا مَوْتٌ)**: كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ

نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾.

الرابع (لا فَـنَا لَـها): فنارُ الكفارِ لاتفنى، بل هي باقيةٌ أبدَ الآبادِ، وهُم مخلدون في العذاب كما جاء في غير آية من القرآن: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا﴾.

* **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

مَحلَّيْـنِ - قُـلْ لِلنَّفْـسِ لَيْـسَ سِـوَاهُمَا - لِتَكْسِـبَ أَوْ فَلْتَكْتَسِـبْ مَـا بَـدَا لَهَـا

فَطُوبَـى لِنَفْـسٍ جَـوَّزَتْ وَتَخَفَّفَـتْ فَتَنْجُـو كَفَافـاً لَا عَلَيْهَـا وَلَا لَهَـا

الشرح

لما ذكر الناظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما أعدَّهُ اللهُ ﷻ لأهل السعادة من نعيم الجنة، وما أعدَّهُ لأهل الشقاوة من عذاب النار، خَتَم بهذه الموعظة العظيمة فقال:

(مَحَلَّيْنِ قُلْ لِلنَّفْسِ لَيْسَ سِوَاهُمَا): أي فقل أيها الناصح لنفسه، إنَّ الدارَ الآخرةِ لابد من الانتقال والارتحال، وليس فيها إلا محلين: إما الجنة أو النار؛ كما قال تعالى: ﴿فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾، وليس هناك محلٌّ ثالث.

قوله (لِتَكْسِبَ أو فَلْتَـكْتَسِبْ ما بَدَا لَها): فإنَّ الله ﷻ يقول ﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡ﴾ فما عَمِلَـتْهُ من خيرٍ ستنالُ ثوابه وأجرَهُ، وما عَمِلتْهُ من شر

سيكون عليها عقابه ووزره، فإنَّه يوم المجازاة على الأعمال، كما قال تعالى: ﴿ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴾.

وإذا عرف العبد هذه الحقائق وما سبق من ترغيب وترهيب، ورجاء وخوف، ورغبة ورهبة؛ وجبَ عليه أن يَتنبَّهَ وأن يَتذكرَ مصيرَه ومآله يوم القيامة، فما ثمَّتَ إلا جنة أو نار، وإنَّ الجنة لها أعمالٌ، والنار لها أعمال، فمن عَمِلَ بأعمال أهل الجنة الصالحة فاز بثوابها وأجرها، وإن اكتسبَ السيئات والمعاصي نالَ عقوبَتها ووزرها ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾.

ثم ختَمَ الناظِمُ بتأكيد المعنى الذي صدر به هذه القصيدة فقال:

(فَطُوبَى لِنَفْسٍ): أي حالٌ ومآلٌ طيب كريم في جنات الرضوان كما قال الله: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾.

قوله (جَوَّزَتْ وَتَخَفَّفَتْ): أي تَنبَّهت لحال الدنيا وزُخرفها الزائل الفاني فتـ(جَوَّزت): والتجَوُّز هو التخفيف، فتخففت من الدنيا ولم تنهمك في مُتَعِها وزخرفها، بل كان أكبرُ هَـمِّها الدار الآخرة، وطلب ما عند الله ﷻ.

قوله (فَتَنْجُو كَفَافاً لا عليها ولا لها): يقال كَفافاً، أي: سواء بسواء، فلا يوجدُ موجبٌ للعقاب، ولا يوجدُ موجِبٌ للثواب فيما يتعلق بأمور الدنيا.

ومما يعين على فهم هذا المعنى الذي ذكـرَهُ الناظم رَحِمَهُ اللهُ ما أخرجَـهُ الترمذي في

«جامعه» من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: أن رجلاً قعدَ بين يدي النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إن لي مملوكِين يكذبونني ويخونني ويعصونني وأشتمهم وأضربهم، فكيف أنا منهم؟ فقال النبي ﷺ: « **يُحسبُ ما خانوك وعصوك وكذبوك، وعقابُك إياهم، فإن كان عقابُك إياهُم بقدرِ ذنوبِهم كان كَفَافاً لا لك ولا عليك، وإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلاً لك، وإن كان عقابُك إياهم فوق ذنوبهم اقتص لهم منك الفضل** »، قال: فتنحى الرجلُ فجعلَ يبكي ويهتف، فقال رسول الله ﷺ: « **أما تقرأ كتاب الله** ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ﴾»، فقال الرجل: والله يا رسول الله ما أَجِدُ لي ولهم شيئاً خيراً من مفارقتهم، أُشْهِدكَ أنهم أحرارٌ كلَّهُم(١) .

فليراجع المرء نفسه في كلِّ ما يتعامل به مع الناس، فإن كان يمضي فيه بالتجوز والتخفف فالأمر كفاف لا له ولا عليه، وإلا فليكن في غاية اليقظة لئلا يحمِّل نفسه من مظالم العباد ما يكون ندامة يوم القيامة، وأن يُذكِّر نفسَهُ دائماً بالوقوف بين يدي الله وبالحساب، وأن الموازين تُنصبُ يوم القيامة، وتؤدى الحقوق لأصحابها، فيبعثهُ ذلك على أخذ الحيطة والحذر، ومع ذلك يسأل ربه سبحانه وتعالى دائماً النجاةَ والمعونةَ والتوفيق والسداد، فإن الأمر بيده وحده لا شريك له.

---

(١) «جامع الترمذي» أبواب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الأنبياء، رقم: (٣١٦٥)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، رقم: (٢٢٩٠).

وأسأل الله أن يوفقنا أجمعين لما يحبه ويرضاه من سديد القول وصالح العمل إنَّه سميع قريب، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.



